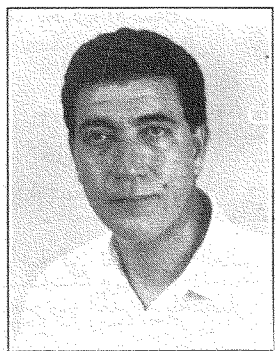

محمد عز الدين التازي

الينابيع

مدى شاسع أبيض، تخترقُ بياضَه أسوارٌ غامقةٌ تَهَشَّمَتْ أعاليها وبدت كأنها لا تُسَيِّجُ أي شيء، أية مدينة، وكان ذلك المدى لا ينتهي إلى شيء، فكأنه ذاهب من البياض إلى البياض، حتى بَعْضُ الرياحِ التي كانت تَعْصِفُ من حين لآخر، تبدو وكأنها تُحَسُّ ولا تُرَى، وحتى آثار الخطى، تُشعِرُ المرءَ بأناس كانوا، وهم الآن غير موجودين في المكان.

مكان مرئي في حلم، في شريط سينمائي، في لحظة من لحظات التأمل التي تَهْدِمُ العالمَ وتَبْنِيهِ من جديد. مكان مُلْتَبِس، يقع بين الصحراء وحَد الماء، ولقد رأيتُه في ذلك المساء، بعدما خرج من صحرائه، وهو يَغْطِسُ ويغيب تحت الماء مدة خرافية ثم يصعد ليظهر بوجهه الأصفر وابتسامته الوضيئة، ونور عينيه، وكأنه يحمل على كتفيه جبالاً من الماء، فقد ظهر ساعداه الأبيضان بياض ذلك المدى وهما يُرَاوِغَانِ الماءَ الثقيل على حفظ التوازن، والبسمة وضيئة، والنور في العينين. انتظرت أن يقول لي شيئاً ولكنه غاب تحت الماء ليطلع من جديد من بين كثبان رمال تلك الصحراء المحتملة، التي هي ذلك البين بين، بين المكان والمكان، وحينما ظهر واقفاً وقدماه تكتويان بحرارة رمال الصحراء، ابتسم ابتسامته الوضيئة، وبَدَا نُورُ عينيه، ثم غاب في الرمل وكأن الصحراء قد ابتلعته تماماً، فلم يعد له أي ظهور، وإن كان ماثلاً أمامي في احتمالات ذلك المكان.

الشاعر.

اسمه الشاعر.

له الأسماء كلها ولا اسم له سوى الشاعر.

حينما غاب في الصحراء عاد إلى الظهور في الماء، وهو يحمل جبالاً مائية على كتفيه، ويغوص ثم يصعد، بعدما بقي تحت الماء مدة خرافية وكأنه يستخرج اللآلئ من الأصداف، حتى خشيت أن تكون نهايته كنهاية بطل فيلم «بحر يا بحر». لكنه قال لي باسماً ابتسامته المعهودة إنه يكتب الهايكو.

حين سألته عن الهايكو قال إنه شكل شعري خاص مؤلف من سبعة أبيات قِصَارٍ يُعَبِّرُ فيها الشاعر عن لحظة من لحظات الفرح أو التأمل أو الخوف أو الدهشة.

تناظرنا في بياض هذا العالم الذي لا يَحُدُّهُ شيء سوى البياض وقلت له:

ـ ماذا تنوي؟

قال:

ـ لا نية لي في شيء.

قلت:

ـ هل أنت عَدَمِيّ؟

قال:

ـ دع عنك أسئلة المحققين وابدأ من حيث البدء.

قلت:

ـ ومن أين يبدأ البدء؟

قال:

ـ هذا السؤال يُحَيِّرُنِي.

قلت:

ـ وما يفرحك في هذا العالم؟

قال:

ـ الريح والأشجار.

قلت:

ـ وما يجعلك تتأمل في هذا العالم؟

قال لي:

ـ الأوصاف التي لم يصفه بها أحد.

قلت له:

ـ وما يجعلك تخاف؟

قال:

ـ الخوف نفسه، فأنا أخاف من الخوف، من أن يكون في العالم ما يُخيف الإنسان.

ـ قلت:

ـ وما يجعلك تندهش؟

قال:

ـ أن تبقى في العالم شجرة لبلاب، وردة، تفاحة، نساء، حلم، رغبة في تغيير هذا العالم، فتاة عذراء، رَجُلُ سياسة عُذْرِيّ، شاعر عذري. العُذْرِيَّةُ باختصار.

قلت:

ـ أنت مريض بداء البدائية، وها هو العالم يحترق، يعود إلى رماده الأول، فماذا تريد؟

قال باسماً:

ـ الينابيع.

تحيرت ولم أعرف قصده، ولعلي قد وجدت له بعض الأعذار، فالرجل يُكَلِمُني وعلى كتفيه جبال من الماء، ولعله قد صار مجنوناً، أو مُتَصَوفاً، أو كليهما وبقي هو الشاعر، إلا أنه قد اختفى، تحت الماء، بعدما ترك في أذني إيقاع كلمة: الينابيييع، الينابيييع، الينابيييع.

الينابيع.

عَنْ أيهَا كان حاملُ جبال الماء، الغارقُ في رمال الصحراء، يتحدّث؟ لعله كان يُحَدثُ نفسه عن تجليّات تجلت له وحده في بياض هذا البياض، في صحراء هذا الماء في ماء هذه الصحراء، ولعله كان وهماً من أوهامي في مكان قصي كهذا المكان، ولعله الماء أو الصحراء، أو ربما كان حلماً من الأحلام التي يحضر فيها الغريب، ليجعلها أكثر بهجة، أو أكثر إيحاشاً، يختفي في ظهوره، ويظهر في اختفائه، والعالم الحُلْميُّ يبدأ عادة، من هذه الصحراء وهذا الماء.

قال لي وقلت له، وظهر واختفى، وبقي بيننا حَدُّ ذلك البياض الذي يَحُدُّ العالم، وكان يُرَاوِحُ في ذهابه وإيابه بين الماء وبين الصحراء، كأنه النبي، كأنه صانع هذه الأحلام، كأنه صانع حكاية هذه الحكاية، وأنا أتصور، من آثار أقدام الخطى البادية على رمال الصحراء أنني لست الوحيد في هذا العالم الذي يرى حلماً كهذا، أو يَتَوهَّمُ وهماً كهذا، أو يشاهد شريطاً سينمائياً كهذا، أو يَتَحيَّرُ في فهم المقصود من الينابيع، بكل رجع الصوت، وبكل الرَّجَّة التي تُحْدِثُهَا كلمة: الينابيييع، الينابيييع، الينابيييع.

ظهر مرة أخرى من تحت الماء كأنه الحوت، أو كأنه قد اصطاد مجموعة من لآلئ الأصداف النادرة، التي يمكن أن تكون في حالته كشاعر، هي المعاني، والصور المكتشفة، والأشكال المبنية، والدَّفْقُ الذي يَشبِكُ كل ذلك في مجرى القصيدة. ولقد عرفت ما هو الهايكو، لكني لم أعرف أكانت اللحظة تتعلق بفرح أو تأمل أو خوف أو دهشة. كنت أنتظر. لكنه لم يقرأ القصيدة، فقد بدت عيناه مأخوذتين، ولون الاصفرار يصبغ وجهه، وأنفاسه تصعد وكأنها الأخيرة، كان قادماً من البياض إلى البياض.

قلت له:

ـ أنت تُخَرف. فقد خَرِبَ هذا العالم من زمان. كُلُّ بَكَارَاتِ الرجال والنساء مُفْتَرَعَة، والريح لم تعد مساعدة على لقاح الشجر، فقد أصبحت مثقلة بغازات الآزوت، والعالم مَوْصُوفٌ حتى وإن لم يصف أشياءه وأناسه أحد، فالأوصاف لصيقة بالموصوفات.

قال لي وهو يمسح الماء عن عينيه، حتى تَبْدُوَا نَيرَتَيْنِ كما كانتا:

ـ اسمع، هناك شيء واحد يبقى بعد خراب هذا العالم.

قلت له مقاطعاً، وبلهفة:

ـ ما هو؟

قال باسماً:

ـ الينابيع.

قلت:

ـ وأنا؟

قال:

ـ أنت لو لم تكن تمتلك هذا الحد من الدهشة لما كانت لك براءة السؤال، ولو لم تكن لك براءة لما بقيت في هذا العالم.

ضحكت وقلت له:

ـ ومن أنا؟

ضاحكني وقال:

ـ أنت القارئ.

عاد ذلك المدى الشاسع الأبيض إلى الظهور، تخرقه أسوار غامقة مُهَشَّمَة، وحدها تنهض في ذلك العراء الأبيض، وكنا أنا والشاعر، نلعب لعبة الظهور بين الماء وبين تلك الصحراء، لعبة لا تنتهي، كما لا ينتهي الحلم، كما لا ينتهي الوَهْم، كما لا ينتهي الفيلم السنمائي، كما لا ينتهي الماء ولا تنتهي هذه الصحراء.